من نحن ولماذا خلقنا؟

كتبه غريب الديار ٥ رمضان ١٤٤٢



إن السؤال من نحن ولماذا خلقنا؟

سؤال جوهري لا يمكن للمرء إلا أن يجيبه إما بلسان مقاله أو بلسان حاله.

فالمرء يتصرف في حياته بناء على إجابته لهذه السؤال, بمعنى أن تصرفات المرء تخبر عن من يكون عند نفسه ولماذا خُلقَ, وهذا ما سوف نكشفه إن شاء اللّٰه من خلال:

- من نحن ولماذا خُلقنا بحسب تصرفاتنا
- من نحن ولماذا خُلقنا في القرآن
    - مكانة الإنسان في القرآن
    - الغاية التي خلقنا من أجلها في القرآن

- الخاتمة

من نحن ولماذا خلقنا بحسب تصرفاتنا

إننا إذا نظرنا بصدق وتجرد لحياتنا نجد أن أحدنا يولد في مجتمعه, طفولته يقضيها بين اللهو واللعب وبين المدرسة العصرية التي تشكل وعيه وثقافته وتكون شخصيته ليكون مواطنا صالحا بمفهوم المدرسة.

في المراهقة وبداية الشباب يكون التحصيل الدنيوي هو الشغل الشاغل لكل واحد منا, فكلنا مدفوع بالرغبة في تأمين ما نسميه المستقبل, نحث الخطى وراء التحصيل الدنيوي بأي طريقة ممكنة.

بعد الزواج والإنجاب تحل الأسرة محل المستقبل, فتحصيل حياة كريمة للأسرة, وضمان تعليم جيد للأبناء هو ما يستحوذ على اهتماماتنا.

بعد بلوغ الشيخوخة هذا إن وصلناها, يكون أحدنا حبيس الفراش فالصراع المرير في معترك الحياة كان على حساب الصحة, فقد أورثه عدة أمراض مزمنة, ثم لا يلبث أن يموت.

هذا هو واقع أغلبنا للأسف الشديد, والذي عند فحصه يمكننا أن نعرف من نكون بالنسبة لأنفسنا, وما هي الغاية التي خلقنا من أجلها في تصورنا.

إن المتأمل لواقعنا يرى بوضوح أن الواحد يعيش لذاته, بمعنى أنه سيد نفسه, قراراته يتخذها وفقا لمصالحه الدنيوية المعتبرة عنده.

بمعنى آخر إن الواحد منا يتبع هواه فهو من تدور حياته عليه, وهذا هو ما عبر عنه ربنا عز وجل بقوله:

﴿أَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ أَفَأَنتَ تَكونُ عَلَيهِ وَكيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

فالواحد منا في كل مراحل حياته مدفوع بهواه, لتحصيل مكسب مادي لنفسه أو لأسرته, ولا يعدم أحدنا التبرير لنفسه, كقولنا العمل عبادة.

إن العمل عبادة لله حين تكون طاعة رب العالمين هي الدافع وراءه, وهو نفسه عبادة للهوى حين يكون الهوى هو الدافع له, وهذا هو واقعنا للأسف.

إن اتباع الهوى يجعل الواحد منا يعيش لشهواته, يأكل ويتمتع, وهو في الحقيقة لا يختلف كثيرا عن الأنعام, فهي أيضا تمر بنفس السلسلة, تولد وتكبر وتتكاثر وتربي صغارها.

فلذلك إذا نظرنا بنظرة متجردة, نجد أنفسنا نكرر نفس الدورة التي تمر بها الحيوانات مع ملاحظة الإفراط الشديد في الاستمتاع كلما استطعنا ذلك, وعليه فإن قول الحق سبحانه:

﴿أَم تَحسَبُ أَنَّ أَكثَرَهُم يَسمَعونَ أَو يَعقِلونَ إِن هُم إِلّا كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

ينطبق علينا حرفيا.

بالنسبة للسؤال لماذا خُلقنا بحسب تصرفاتنا ؟

فإن الإجابة كما يبدو "لا لشيء" لأنه خلال حياتنا ليس هناك هدف عام نسعى له, فكل واحد منا مشغول بعبادة ذاته, منهمك في إشباع رغباته.

إن الناظر إلى واقعنا يدرك بوضوح أننا عمليا نعتبر الكون خُلق عبثا, فليس في حياتنا ما يعكس غاية خُلق من أجلها الكون, أو خُلقنا من أجلها, فصار لسان حالنا بالضبط ما أخبر اللّٰه عنه في قوله :

﴿وَما خَلَقنَا السَّماءَ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَروا فَوَيلٌ لِلَّذينَ كَفَروا مِنَ النّارِ﴾ [ص: ٢٧]

فبالنسبة لنا الكون كله خُلق باطلا لا لغاية مسبقة, ومن ثم فإننا نتصرف بأنانية محضة, الواقع خير شاهد عليها.

إن الذي يؤلمه هذا الواقع وما يعبر عنه من كفر صريح وحيوانية, لاتزال لديه الفرصة لتغيير واقعه إلى واقع ينسجم مع الغاية التي خلقنا من أجلها والتي سوف نتحدث عنها فيما يلي

من نحن ولماذا خلقنا بحسب القرآن

في القرآن نجد أن ماهية الإنسان ومكانته بين المخلوقات والغاية التي خلق من أجلها مفصلة أشد تفصيل ومتسقة فيما بينها كما سنعرف فيما يلي إن شاء الله

مكانة الإنسان في القرآن

يبدأ القرآن في تشريف الإنسان من اللحظة الأولى، فمجرد أن يرسل الله الخالق إلى الإنسان المخلوق رسالة تحوي كلامه وأوامره، يعتبر تشريفا للإنسان في حد ذاته.

يتواصل تشريف الإنسان والرفع من قيمته بين سائر المخلوقات بجعل الكون كله بأرضه وسماه مسخر له، نجد ذلك في قوله سبحانه:

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فِراشًا وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزقًا لَكُم فَلا تَجعَلوا لِلَّهِ أَندادًا وَأَنتُم تَعلَمونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

وفي قوله:

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم ما فِي الأَرضِ جَميعًا ثُمَّ استَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]

ولم يتوقف التكريم على هذا بل إن من تكريم الله للإنسان أن علمه سبحانه كما أخبر في قوله:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنبِئوني بِأَسماءِ هؤُلاءِ إِن كُنتُم صادِقينَ﴾ [البقرة: ٣١]

وفي قوله :

﴿اقرَأ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ۝الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ۝عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَم يَعلَم﴾ [العلق: ٣-٥]

فأي تكريم للإنسان فوق أن يكون الله معلمه ؟

الغاية التي خلقنا من أجلها في القرآن

إن ما منَّ الله به على الإنسان من فضل، إنما هو من كرم الله عز وجل ليس للإنسان فيه دخل، وهو ضروري للقيام بالمهمة التي خلق من أجلها وهي التي ذكر الله في قوله:

﴿وَإِذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرضِ خَليفَةً قالوا أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنّي أَعلَمُ ما لا تَعلَمونَ﴾ [البقرة: ٣٠]

فالإنسان خُلق ليكون خليفة في الأرض, لذلك علمه الله كنه الأشياء التي هو مستخلف عليها فاسم الشيء هو كنهه, كما أن الله أرسل إليه رسالاته ليقوم بمهمته على أحسن وجه.

﴿قُلنَا اهبِطوا مِنها جَميعًا فَإِمّا يَأتِيَنَّكُم مِنّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ۝وَالَّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]

فاتباع الوحي سيمكنه من القيام بمهمته على الوجه المرضي عند الله عز وجل, محققا بذلك الغاية التي خلقه الله من أجلها في صورتها الأشمل والتي عبر عنها سبحانه في قوله:

﴿وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلّا لِيَعبُدونِ۝ما أُريدُ مِنهُم مِن رِزقٍ وَما أُريدُ أَن يُطعِمونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]

إن الإنسان الخليفة في الأرض, وعليه فكل الأرض تتأثر به سلبا وإيجابا, ولذلك إذا صلح صلحت الأرض وإذا فسد فسدت الأرض, ولهذا أشار ربنا في قوله:

﴿ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِما كَسَبَت أَيدِي النّاسِ لِيُذيقَهُم بَعضَ الَّذي عَمِلوا لَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾ [الروم: ٤١]

ومن ثم فإن جزاء الإنسان ليس كجزاء غيره, فهو المسؤول الأول إذا أفلح في مهمته نال أحسن الجزاء, وإذا فشل بعد كل ما وفر له كان عذابه أشد عذاب فهو صاحب الوزر الأكبر.

الخاتمة

شتان بين العيش ذليلا للشهوات, عبد للهوى, وبين العيش عبداً لله, خليفة على الأرض يقوم بإعمارها وفقا لمراد الله عز وجل

إن الفرق واسع جدا فعبودية المرء لله عز وجل ترفعه إلى أعلى درجات العلو والسموق, في حين أن العبودية للهوى ترد الإنسان أسفل سافلين وهذا بالضبط ما نص عليه ربنا في قوله:

﴿لَقَد خَلَقنَا الإِنسانَ في أَحسَنِ تَقويمٍ۝ثُمَّ رَدَدناهُ أَسفَلَ سافِلينَ۝إِلَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُم أَجرٌ غَيرُ مَمنونٍ﴾ [التين: ٤-٦]

وفي قوله:

﴿وَالعَصرِ۝إِنَّ الإِنسانَ لَفي خُسرٍ۝إِلَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبرِ﴾ [العصر: ١-٣]

فاختر لنفسك إما مكانا في الذُّرى، أو قاعا تحت الثرى